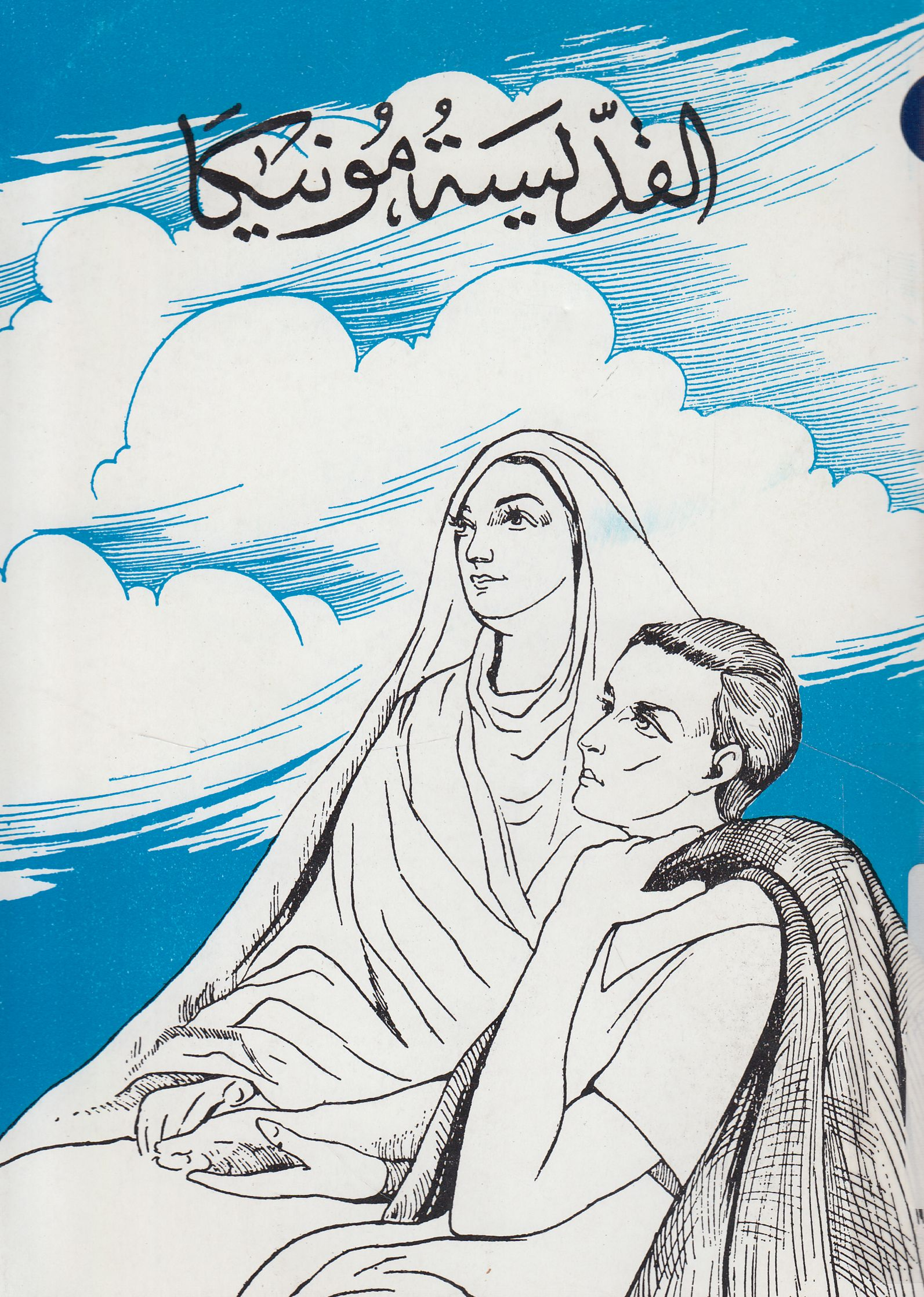

القدّيسة مُونيكا

من سير القديسين والقديسات

— ٤ —

القديسة مونيكا
أم أغسطينوس

دار مجلة مرقس

كتاب : القديسة مونيكا أم أغسطينوس
المؤلف : دار مجلة مرقس
الطبعة الأولى : ١٩٦٧
الطبعة الثانية : ١٩٨٧
مطبعة دير القديس أنبا مقار — وادي النطرون
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : ٨٧/٤٣٥٣ .

الناشر : دار مجلة مرقس
٥٠ «أ» شارع شبرا — القاهرة
ص . ب ٣١ شبرا — القاهرة ت ٧٧٠٦١٤

محتويات الكتاب

تقــديــم

مـا أكثر الـزوجات وما أكثر الأمهات! ولكن ليست كل زوجة كهذه الزوجة، وليست كل أُم كهذه الأم!

فهذا الكتاب يعرض لنا قصة زوجة استطاعت بصبرها و وداعتها وإخلاصها أن تحوِّل زوجـهـا الوثني الشرس الطباع إلى خليقة جديدة في المسيح مزيَّنة بثمار الروح والمحبة والتعفف.

و يقدم لنا حياة أُم عاشت كل سني عمرها تصلي بالدموع من أجل ابنها الشارد لـكـي تـأتى بـه إلى حـظـيـرة الإيمان، وتكسبه للمسيح ابناً مبرَّراً، وخادماً مكرساً، وأُسـقـفـاً مبجَّلاً، ومثالاً عجيباً للتوبة، ودليلاً على فاعلية النعمة الإلهية التي يمكنها أن تحول أشر الخـطـاة وأبـشـع الـفـجـار إلى قـديسين مجاهدين مضيئين بفضائلهم في كنيسة الله.

تـزوجت القديسة مونيكا رغماً عنها من رجل وثني، وقاست من طباعه الوحشية الـكـثير، وأُحيطت منذ بداية شبابها بألوان المؤامرات والدسائس في منزل زوجها بما يـنـوء تحـت ثـقـلـه أشـد الـرجـال بأساً وأكثرهم صبراً؛ ولكنها احتملت وصمتت، و بوداعتها وإيمانها الثابت في المسيح وثقتها الراسخة في محبة الله لها، قَبلَتْ كل ما أتى عليها من يد الله، واعتبرت رباط الزوجية عهداً أمام الله وكنيسته أنَ ترضى بزوجها وتـقـبـله قبولاً كاملاً بكل ما فيه من عيوب وصفات، فهذا هو الحب الصادق وهذه هي صفات الزوجة المسيحية.

ثم شـاءت إرادة الله أن تـتـرمـل هذه الزوجة الفاضلة وهي بعد شابة، وكان لها ابنهـا أُغُـسـطـيـنـوس، شاباً مستهتراً معتدًّا بذكائه الخارق و براعته العالية في المنطق

والكلام، وقاده طموحه أن يتركها وحدها رغم توسلاتها الكثيرة إليه ألا يرحل.

ولكن هذه الأم لم تكن تبكي وتتوسل إلى ولدها لكي يبقى بجوارها من أجل شخصها وراحتها و بسبب حنانها وشوقها إليه، وإنما كانت تخشى عليه من الإنحراف والبُعد عن الله، خاصة وأنه لم يكن قد عرف المسيح مخلّصاً له وإلهاً وفادياً.

ولكنه لما عصاها لم تجد حيلة إلا الإنسكاب في الصلاة أمام الله، وسكبت من الدموع من أجله ما جعل أحد الكهنة القديسين يقول لها: «ثقي يا امرأة ــ لا يمكن أن يهلك ابن هذه الدموع».

لم تكن هناك بارقة أمل في عودته وتو بته، ولكنها ظلت تصلي، وطالت السنين دون جدوى، ومع ذلك لم تتوقف عن الصلاة. وأخيراً قَبِلَ الله صلاتها وتاب أغسطينوس، وحقّ أن يُدعى «ابن الدموع»... وصارت له القديسة مونيكا أُماً بالجسد وأُماً بالروح، لأنها تمخضت به لكي تلده إنساناً للعالم، وناحت من أجله لكي تلده ابناً للمسيح.

ولما اكتحلت عيناها برؤ يته داخلاً كنيسة الله ليتقبّل سر العماد المقدس امتلأ قلبها فرحاً لأنها عاشت ورأت تحقيق رجائها، وكان لسان حالها ما قاله سمعان الشيخ لما حمل الطفل يسوع على ذراعيه: «الآن يا سيدي تطلق عبدك بسلام... لأن عينيّ قد أبصرتا خلاصك.» (لو٢: ٢٩و٣٠)

نسأل الله أن ينفع بسيرة هذه القديسة كلّ مَن يقرأها لخلاص نفوس الكثير ين ومجداً لإسمه القدوس الممجّد إلى أبد الآبدين.

دار مجلة مرقس

ديسمبر ١٩٦٦م.

— ١ —

الطفـــلة

■ «أنت الذي جَبَلْتَها يا الله... أما أبواها فلم يعلما في ذلك الحين قيمة الدُرَّة الخارجة من أحشائها»...

* * *

توقفت مونيكا عند سلالم السرداب. لقد ارتعبت فجأة فقد كان الظلام يملأ المكان... ربما يوجد شياطين في ذلك السرداب... فربما تكون مختبئة وراء الأعمدة ومنتظرة ظهورها لكي تثب عليها. لقد تمنت الآن لو أنها لم تسبق فيليسيتاس ولكن... ألم يكن هذا دَأْبُها؛... ألم تجعل من ذلك الموضوع مزاحها؟ إن فيليسيتاس البلهاء كانت بدينة جداً ولم يكن في إمكانها أن تساير سيدتها الصغيرة في هذا السباق ولكنها كانت تجاهد محاولة إدراكها.

ولكن مونيكا الآن كانت خائفة... خائفة جداً... بدأت تردد بسرعة صلاة قصيرة واندفعت نحو السلم وفي همسة مرتعبة نادت: «فيليسيتاس! فيليسيتاس!» ولم تَتَلقَّ جواباً... ولكن صدى صوتها رنَّ من ناحية تلك الأعمدة المستديرة التي لا تبصر الآن سوى ظلها في ذلك الظلام الدامس المخيِّم على المكان،... وهل يمكن أن يكون؟... أواه هل كان ذلك الصوت... نعم إنهم هم الشياطين يستهزئون بها ومن كمينهم ينادون: «فيليسيتاس، فيليسيتاس» أواه! ما هذا؟! إنها تسمع حركة في أسفل السرداب عند مخازن النبيذ؟...

إستندت مونيكا بجسدها المرتعش وقلبها الذي ينبض حتى كادت تسمع دقاته، إستندت إلى الحائط الحجري البارد وصرخت في صوت مرتعب: «فيليسيتاس!... أسرعي إليَّ! أسرعي!»

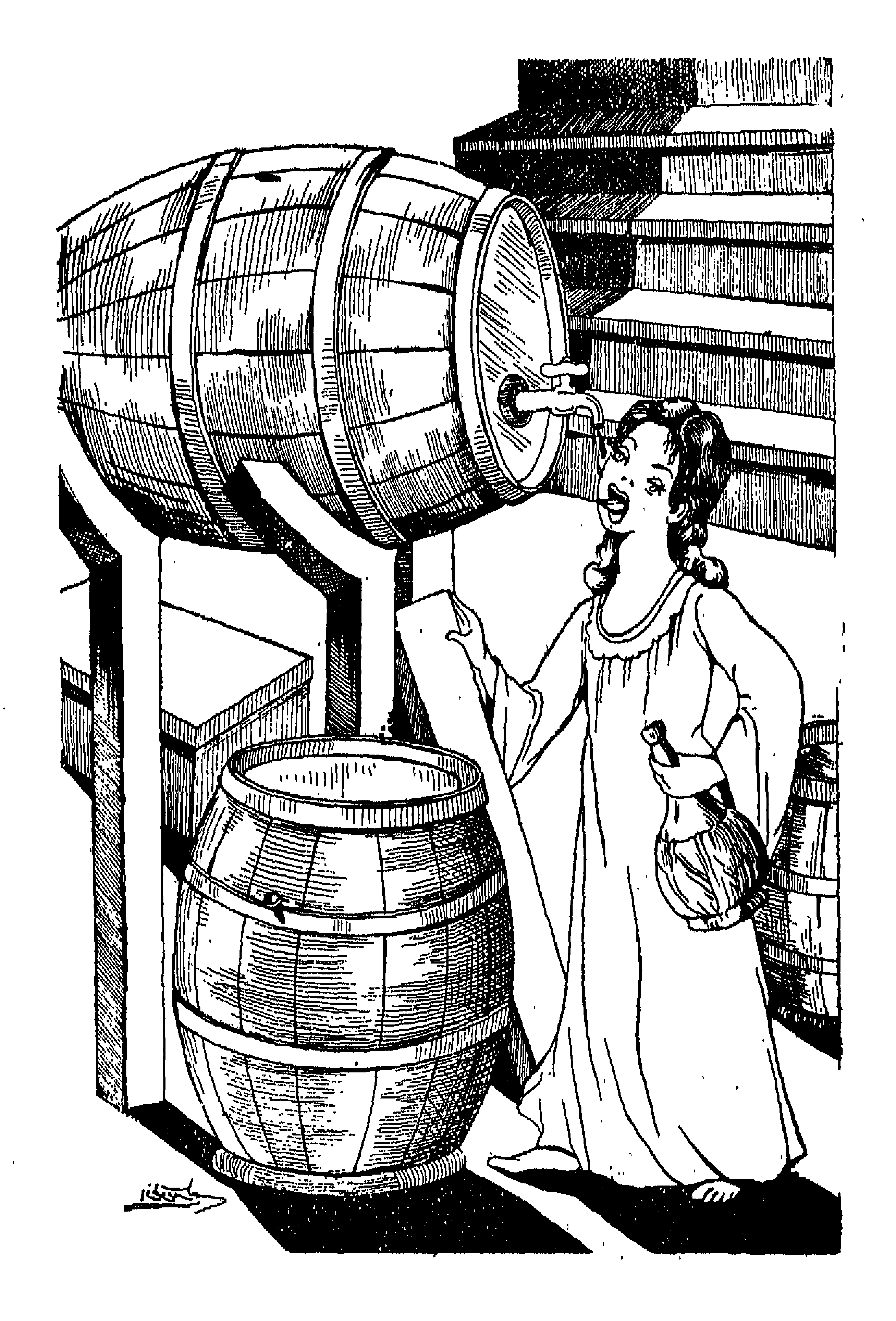
ظهر ضوء خافت عند قمة السلم ثم أخذ يزداد نوره رو يداً رو يداً و بعد برهة قصيرة بدت الخادمة وهي ممسكة بيدها مصباحاً وأخذت تتمتم:
ــ «أسرعي إليَّ، أسرعي، أيتها الإبنة، إنه هكذا دائماً الحال معكِ».

أقبلتْ فيليسيتاس، وعلى ضوء المصباح أبصرت مونيكا المسكينة وهي ملتصقة بالجدار والدموع سائلة على وجهها بينما كانت تمسك بين يديها بشيء يعكس أشعة المصباح.

إنها زجاجة خمر نحاسية وكأس من الفضة. ونزلت الخادمة على الدرجات ببطء ثم قالت لها: «إنه يحقُّ لكِ أن تخافي وترتابي. لابد للشيطان أن يقتنصك يوماً وأنت تسير ين بسرعة لا تليق بسيدة محترمة».

إنتصبت مونيكا بوقار وجدٍّ في مكانها مع أن دموعها لم تكن قد جفَّت بعد من على وجهها. وقد بدا لها أنَّ وقاحة فيليسيتاس قد ازدادت في الأيام الأخيرة... فقالت لها:
ــ «إنك بدينة جداً، هيا سيري وأنيري لي الطر يق، إنني لم أكن خائفة ولكني كنت شاردة الفكر فقط. وها أنا أُنذركِ: إن لم تحاولي التكلم بأدب أكثر من ذلك سأُخبر والدي بوقاحتك فتُجلدين بالسوط».

سارت الخادمة وهي عابسة لأن سيدتها الصغيرة قد أهانتها ولمست الوتر الحساس إذ عيَّرتها ببدانتها. إنه أكثر مما يمكن أن تتحمل امرأة من طفلة؛ ولكنها



مدّت شفتيها وارتشفت بعض قطرات النبيذ

بالرغم من ذلك إلتزمت الصمت .

وصلت الإثنتان إلى القبو، فانحنت مونيكا على البرميل لتصبَّ بعض النبيذ . ولكن قبل أن تملأ الزجاجة ملأت كأسها وشربت بشراهة لأنه كان يوماً حاراً وكاد الظمأ يقتلها .

لقد كانت مربية الأولاد العجوز محبة للنظام ولقد ربَّت بنات سيدها على أسس كلها دقة حتى إنها لم تكن تسمح لهن بشرب كوب من الماء إلاَّ على مائدة والديهن . إنها كانت تقول لهن :
ــ «إنكُنَّ تشربْنَ الماء الآن وتكتفين به لأنه ليس في مقدوركن أن تشربن الخمر الذي لا يليق بكُنَّ وأنتُنَّ شابات ، ولكن لما تصبحن ربات بيوت حينئذ تستبدلن الماء بالخمر إذا شئْتُنَّ» .

إن قصة إجتراء مونيكا على شرب الخمر بدأت عندما أرسلها والداها لأول مرة لتحضر لهما بعض النبيذ ، فرأت مونيكا أنها فرصة نادرة لكي تخالف أوامر مربِّيتها الصارمة .

مدَّت شفتيها وْارتشفت بعض قطرات النبيذ قبل أن تسكب في الزجاجة وإذ ذاك استنار وجهها بنشوة النصر. إنها انتصرت على ديكتاتورية المربية وهكذا عصت أوامرها .

لم تذُقْ في ذلك الحين كثيراً من الخمر ولكنها رأت أنها ذاقت ألذَّ وأحلى قطرة تذوقتها في حياتها . لقد شربت الحرية لأول مرة !!

أخذت الأيام تتوالى ، وكل يوم كانت مونيكا تزداد فيه إشتياقاً وحنيناً إلى تلك الساعة التي تتصرف فيها بحسب إرادتها وحدها ــ كما يفعل البالغون رشدهم .

ولكن مونيكا انتابتها نشوة جديدة و بدأت تشعر بسرور من نوع آخر. إن طعم النبيذ حلو وهو بارد، أصبحت القطرة الواحدة قطرتين ثم ثلاث ثم... لماذا لا تأخذ منها كأساً؟ أخذت كأساً فضياً وملأته إلى الحافة وشربته... وأصبحت عادة. وها هي الآن في القبو كعادتها.

وضعت مونيكا الكأس جانباً ورفعت الزجاجة وملأتها بالنبيذ ثم نظرت إلى خادمتها، فالتقت عينا مونيكا والخادمة الساحرة و بدأت الخادمة توبخها وتعيّرها قائلة:

ــ «لا تعودي تتهمينني بالفظاظة والوقاحة ها أنت في الحقيقة شريبة خمر وسكيرة».

جحظت عينا مونيكا حتى إن الزجاجة كادت تنزلق من يدها لولا أن النبيذ البارد الذي سال عليها نبّهها. و بدون أن تتفوه بحرف آخر، إستدارت نحو البرميل لتملأ الزجاجة. وفي الواقع كانت توبيخات الخادمة الحادة شديدة الوطأة على مونيكا وأصابت قلبها، فأزاحت الستار عن خطاياها. ملأت الزجاجة بالنبيذ وأشارت إلى الخادمة لكي تحملها وتتبعها ثم عادت أدراجها متخذة ذات الطريق الذي حضرت منه ولم تتوقف إلا لتضع كأسها في مكانه المعتاد، وجرت هاربة إلى جناح السيدات.

إرتمت مونيكا في أحضان مربيتها التي كانت جالسة بجانب النافذة ثم دفنت رأسها في حجرها و بكت بقدرٍ لم تبكه من قبل. بكت بقلب متفتت أوشك على الإنفجار.

تحولت السيدة العجوز عن تأملاتها في السماء، و بأصابعَ مرتعشة أخذت تداعب شعر الطفلة الناعم. إن لمستها الساحرة سكّنت من روع مونيكا وهدأتها ولكنها لبثت

جاثية على ركبتيها مخفية وجهها بجانب مربيتها، مرة أخرى حولت السيدة العجوز عينيها إلى النافذة نحو السماء التي كانت في لون العنبر الصافي، بينما انتصبت الأشجار الداكنة اللون في الحديقة وكأنها حرس منتصب في الظلام الذي بدأ يتسلل خلسة.

رفعت الصغيرة رأسها، فأضاء النور الخافت وجهها العاجي وشعرها المسدل في الظلام، هكذا مكثت السيدة العجوز مع الطفلة إلى أن اختفى ضوء النهار وحلّ محله نجومٌ أضاءت السماء كالمصابيح الصغيرة، بينما كانت الحديقة تسبح في ظلام وأشجار الزيتون كأنها محاطة بأسرار!!

جلست المربية العجوز وأخذت تتلو صلاة صامتة بدون أن تسأل حَمَلها الصغير عن سبب ألمها وحزنها؛ بل رجعت بذاكرتها إلى طفولة والد مونيكا وأَخَذَتْ تتذكر كيف كانت تعتني به حاملة إياه على ظهرها.

والآن ها هي تعتني بأطفاله وتنشِّئهم وتربي فيهم مخافة الله. إن مخافة الله قد ملأت الطفلة مونيكا في هذه الساعة، ومن ثم نذرت نذراً وقطعت عهداً في قلبها مع الله أن لا تذوق الخمر بعد.

لقد نَفَذَ مشرط العلي الكريم في نفس هذه الطفلة لكي يستأصل الداء من هذا الجرح. لقد جاءتها الرسالة على لسان خادمة غاضبة موبِخة لها، وها هي قد شَفَتْها وجعلت منها إنساناً صالحاً...

ظلت الطفلة متشبثة بساقيّ مربيتها وسألتها بخجل:

ــ «هل أُرنم ترنيمتي قبل أن تُحضر المصابيح»؟

ثم وقفت وأخذت تضغط بيديها على ساق مربيتها بينما دبّت الحرارة والغيرة الروحية في جسدها الصغير فرنمت بعقلها وروحها:

ــ مجداً للنور البهي، الذي يشع من المجد الأسنى من الآب الخالد السماوي، وقدوس القديسين الرب يسوع المسيح.

ــ عندما يأتي وقت الغروب،

وتسترق حولنا أنوار المساء،

نرنم للآب والإبن والروح القدس الإله الواحد.

ــ مستحق أنت أن نسبحك بألسنة لا تفتر،

يا ابن إلهنا واهب الحياة وحده،

ــ مجدُك يملأ كلَّ الأرض...

وإذ ذاك شعرت الإثنتان بحركة عند مدخل الغرفة، ثم أبرق شعاع النور متسللاً إلى الغرفة وسطع على البلاط الرخامي، وامتد نحو هاتين الجالستين بجانب النافذة.

و بعد قليل امتلأت الغرفة بالنور، وتغلب على ضوء النجوم لما دخلت الخادمة حاملة في يديها المصابيح المسائية...



— ٢ —

الزوجـــة

■ « كانت هي... خادمة خُدَّامك يا إلهي، كلُّ مَنْ عرفها مجَّد وسبَّح وأحبَّ اسمك القدوس الذي فيها ».

□ □ □

أشرقت شمس الشتاء على الفناء المنحدر، فألقت بدفئها في كل المكان بينما ألقت بأشعتها الوهَّاجة على درجات السلم الرخامي ذي اللون الأصفر. وكان يحيط بالسلم درابزين نحاسي منخفض، فكان يخيَّل للناظر إليه أنه أفعى ملتوية ذهبية اللون. وبجانب هذه الصورة الجميلة، كانت هناك شجرة الأرز الكبيرة بظلها الضخم، بينما وقفت النافورة في ظلالها بلا حراك، وعكست الورود المحيطة بها صورتها على سطح مياهها الخضراء العميقة. وفي وسط النافورة كان يوجد تمثال خزفي يوهم الناظر إليه أنه ينبض بالحياة تحت قطرات المياه المتساقطة من النافورة، ولكنه في هذه اللحظة كان يبدو وكأنه نائم، وحتى تلك الوزغة (السحلية) الواقفة على الدرابزين كان يبدو عليها النوم إذ كانت هي أيضاً بلا حراك...

خرجت مونيكا فجأة من البيت المظلم، فأخفت عينيها بيديها من شدة النور الذي يخطف الأبصار. خطت برشاقة وهدوء إلى الحديقة، وفي ضوء الشمس سارت إلى أن وصلت إلى شجرة الأرز. اضطربت السحلية إذ شعرت بحركة مونيكا و برق لونها الأخضر وهربت ثم اختفت.



سمعت حركة وراءها فاستدارت لتنظر مَنْ القادم،
فرأت إحدى المربيات قادمة تحمل طفلها الأصغر...

فوقفت مونيكا بجانب النافورة ونظرت إلى مياهها الصافية العميقة وهي تتابع ما يدور حولها.

إن من دواعي حزن مونيكا أن والديها وهباها لرجل وثني لتكون له زوجة، وكان ذلك التمثال الخزفي الذي تقف أمامه الآن يذكّرها بوثنية زوجها، وتنهدت المسكينة ورفعت عينيها ناظرة لتلك الشجرة العتيقة، ومن ثم إلى السماء العالية ـــ لا يوجد إنسان على وجه الأرض يعلم بحزنها و بكائها وصلواتها من أجل توبة زوجها وتحوُّله إلى المسيحية، إن الله وحده الساكن في الأعالي هو الذي كان يراها.

وسمعت حركة في الشرفة وراءها، فاستدرات لتنظر مَنْ القادم، فرأت إحدى المربيات قادمة تحمل بين ذراعيها طفلها الأصغر. فهمّت مونيكا لملاقاتها، وإذ أبرقت عيناها ببريق عجيب سألتها:
ـــ «هل هو نائم؟» فأجابتها: ـــ «نعم يا سيدتى، لقد نام منذ ساعة تقريباً».

ـــ «أنظري كيف يبتسم أثناء نومه!؟» همست الأم بتلك الكلمات وانحنت على ولدها وقبّلته في وجنتيه ثم استأنفت حديثها:
ـــ «ألم أخبرك يا عزيزتى كيف ابتسم لي عندما استيقظ هذا الصباح؟»
تفرست مونيكا في طفلها بإعجاب، وعلمت أن وراء تلك اللفائف والأقمطة جمالاً وقوة مخفيتين. ونظرت لتلك الرأس الصغيرة المكسوة بالشعر الأسود الناعم... وتخيلت ابنها في اكتمال الرجولة. حقاً إن جمال ولدها الأصغر يدعو للإعجاب.

ـــ «ماذا سيكون الحال مع هذا الطفل، يا تُرى، لما يصير رجلاً؟»
تمتمت الأم بتلك الكلمات ثم تركتها وسارت في الحديقة، ووقفت أمام بعض الورود، ثم انحنت ولمست بشفتيها إحداهن، ولكنها لم تجد أوراقها أنعم ملمساً من

وجنتي طفلها الحبيب .

جلست مونيكا على حافة النافورة الرخامية وأخذت تداعب مياهها الباردة بأناملها . إن طفلها هذا كان يختلف عن باقي أطفالها عندما كانوا في مثل عمره . إن له مميزات خاصة فهو سريع الفهم . إن نافيجيوس ولدها الأكبر لم يكن سريعاً في ملاحظة الأنوار المضيئة ، ولم يحاول إدراكها بيديه مثلما يفعل أُغسطينوس ، ولم يكن أيضاً سريع الإدراك مثل هذا الطفل الذي يميز صوتها في هذا السن المبكر و يبكي طالباً أمه .

لقد شعرت تلك الأم أنه لابد لذلك الطفل أن يصير عظيماً ، ربما فيلسوفاً ، أو حاكماً ! مَنْ يعلم ؟ وربما كاهناً . ملأ السرور عينيها إذ وصل بها التفكير إلى أنه قد يصبح ذلك الطفل الصغير المقمط كاهناً للرب يوماً من الأيام .

مرة أخرى أحسَّت مونيكا بحركة في الشرفة ، ومن ثَمَّ أدارت وجهها إلى المكان الذي انبعث منه الصوت فوجدت حماتها واقفة تتطلع إلى الطفل الذي كان بين ذراعي مربيته .

أخذت مونيكا تراقب الثلاثة والسلام يملأ قلبها ، إنها كانت تعلم يقيناً أنها موضوع الحديث الذي كان يدور في ذلك الحين بين حماتها والمربية . وهي تعلم أيضاً أن كثيراً من الخدم يمقتونها و يتكلمون عنها بالسوء مع حماتها ، باغين من وراء ذلك إزعاج سلام المنزل ، ولكن قلب مونيكا كان يعمر بالثقة والإيمان .

كانت قد تعلَّمت أن تودع كل تلك الأمور بين يدي فاديها ومخلِّصها ، وأصبحت هذه الإضطرابات لا تؤثر على سلامها الداخلي . كفَّت حماتها عن محادثة المربية وافتربت من مونيكا ، فوقفت تلك بكل تواضع لاستقبالها . لم تَفُهْ السيدة بكلمة ،

ولكنها جلست على حافة النافورة وأشارت إلى كنّتها لتجلس مثلها. وقفت المربية تنظر إليهما برهة ثم انطلقت إلى الداخل.

ـ «يا ابنتي»، تكلمت بهذا والدة باتروشيوس ببطءٍ وتلَعْثُمٍ، مع أن هذا لم يكن دأبها ولا أسلوبها، واستطردت: «عندي كلام معكِ يا ابنتي». فرفعت مونيكا عينيها بهدوء ونظرت.

ـ «منذ مدة طويلة، وأنا يا مونيكا في غاية التأثر... أنا هُزمت وقُهرت بتواضعك وطول أناتك»؛ كانت الكلمات تخرج من فمها بصعوبة ولا تخلو من تلعثم...

ـ «لقد أخطأتُ كثيراً نحوكِ يا ابنتي، إذ كنت أسمع للخدم وأُصدِّق ما يهمسون به من قصص واتهامات عنكِ، ولكني تيقنتُ، يا ابنتي، أنها كلها وشايات كاذبة، وندمت إذ صدقت أكاذيب الناس، فهل تسامحين أمكِ أيتها الإبنة؟»...

ـ «آه... يا أمي...»

خرجت تلك الكلمات من بين شفتيّ مونيكا بصوت خافت بينما امتلأت عيناها بالدموع.

ـ «لقد أسرتِ نفسي، يا حبيبتي، بفضائلك لقد كنتِ دائماً صانعة سلام تحاولين فض الخصومات ونشر المحبة. إني أتصورك دائماً وأنتِ تجاهدين من أجل مصالحة إنسان مع آخر».

ـ «أمّاه!»

صرخت مونيكا وهي تمد يدها نحوها كمَن تريد أن توقف ذلك الكلام.

ــ « أمّاه! إن هذا ليس فضلاً مني ولا صلاحاً، ولكنه نعمة ربي وإلهي ومخلصي... »

ــ «آه يا ابنتي!»، قالت والدة باترشيوس ذلك وأخذت بين يديها تلك اليد الممدودة نحوها وأحست بحرارة المحبة تدبُّ في قلبها نحو كنّتها الشابة التي ظهر جمالها في ذلك الثوب الأبيض الناصع المطرّز باللون الأحمر. إن تلك الزوجة الصغيرة التي لم يتعدّ عمرها الثلاثة والعشرين ربيعاً قد تحملت كثيراً من الإضطهادات منذ أن جاءت إلى المنزل كعروس لباترشيوس.

حوّلت السيدة وجهها عن مونيكا وسحبت يديها وبسرعة مسحت دموعها التي كادت تسيل من عينيها، ومرة أخرى إتخذت مسلك السيدة الرومانية الرزينة إلا في شيء واحد لم يأخذ صورته الأولى... إن قلبها قد تحول. إن القساوة قد زالت عن ذلك القلب وصار قلباً لحمياً يشعر ويحب مونيكا الطاهرة. ثم قالت لها:

ــ «لقد كشفت لإبني باترشيوس كل ما صنعه الخدم معكِ من سوء المعاملة والإساءة والألفاظ الجارحة وقد جُلد كل الذين تعرّضوا لكِ، أيتها العزيزة، وقد أنذرتُ الجميع أنه هكذا سيكون مصير كل مَن تسوّل له نفسه أن يسيىء إليكِ.

تضايقت مونيكا وتململت غير راضية لِما تمّ ولو خُيِّرت في الأمر لرفضت رفضاً باتاً أن يُعاقَب هؤلاء الخدم المساكين بسببها، والتزمت مونيكا الصمت لأنه ماذا ينفع الحديث الآن بعد أن نُفِّذ ما لم يكن في حسبانها.

حوّلت حماتها وجهها نحوها كما لو كانت تريد أن تستأنف الحديث معها ولكن حدث ما عاق ذلك إذ دخلت الخادمة معلنة قدوم بعض الزوار.

كانت القادمتان صديقتين لمونيكا، متزوجتين وهما من عائلة صالحة من مدينة

ثاجست (Thagaste) الرومانية، تُدعى إحداهما پر پتوا (Perpetua) والأخرى لوسيلاّ (Lucilla)، نهضت مونيكا في الحال لإستقبالها وحيّتهما، وسألتها عما إذا كانتا تفضّلان الجلوس داخل المنزل أم في الحديقة في الهواء الطلق، فاختارتا الجلوس تحت ظلال شجرة الأرز التي أبصرتاها في الحديقة. حيّت السيدتان والدة باترشيوس باحترام، وانصرفن جميعاً إلى الحديقة بينما تركتهن والدة باترشيوس ودخلت إلى المنزل.

جلست مونيكا مع صديقتيها على حافة نافورة في الحديقة، وأخذ الحديث يدور بينهن عن مسئوليات المنازل ومشكلاتها. وفيما هن يتجاذبن أطراف الحديث وصلن إلى سيرة الأزواج فتغيرت نبرات صوت پر پتوا وأصبحت نغماتها مريرة، وأخذت تلقي اللوم على زوجها من نواحٍ كثيرة. وشاركتها لوسيلا في هذا الرأي وأخذت هي الأخرى تشكو مُرَّ الشكوى من غلاظة زوجها ومن حدة طبعه. وأنصتت مونيكا في سكون عجيب إلى هذه المناقشة وحملقت في مياه النافورة الصافية العميقة التي كانت أمامها، وإذ بالسيدتين المتذمرتين تتحولان إليها طالبتين إرشادها في ذلك الموضوع الذي حيّرهما.

فنظرت مونيكا إليها بعينين لامعتين يبرقان ببريق التقوى، وتمثّل أمامها منظر الكاهن وهو يلقّن الزوجة كلمات الوحي الإلهي ومشورة الإنجيل.

ـــ «ألم تسمعا أبداً يا عزيزتيَّ وصايا الزواج التي تُليت عليكما؟... لابد للزوجة أن تعتبر تلك الصلوات التي تُقرأ يوم زفافها عهداً عليها تلتزم بها كعقد يربطها إلى الأبد؛ سراً، أمام الله تنفذه بسلوكها كل يوم مهما كان ضد مشيئتها أو مزاجها الخاص، فسرُّ الزواج يقوم على الوصية، وأمانة الزوجية تنبع من الأمانة للوصية...»

نظرت الصديقتان مندهشتين إلى مونيكا غير مُصدّقتين أُذنيها، فقد ظنتا أنها

ربما تمزح معهما كما تعوّدتا من قبل. ولكن العجيب أنهما أبصرتا حزماً ورزانة وراء تلك النظرة الباسمة، مما جعلهما تتذكران صفات باترشيوس زوج مونيكا، وكيف إنه هو الآخر غضوب حاد الطبع... فتعجبتا من احتمالات مونيكا وصبرها، لأنه معروف عن زوجها أنه رجل متقلب المزاج كالعاصفة، وإنْ كان يبدو حاراً في محبته (أحياناً)، فكثيراً ما يكون متقداً في غضبه خلواً من صفات العفة التي كانت تتزين بها مونيكا زوجته، وبالرغم من ذلك لم يلاحِظ أحد قط في يوم من الأيام أن هناك خلافاً بين باترشيوس وزوجته، مما دعا هاتين السيدتين إلى الخجل والصمت طويلاً...

لقد تغلغلت كلمات مونيكا إلى الأعماق، فتقدمتا إليها طالبتين معرفة سر ذلك الصبر والسلام والوئام الذي يسود بينها وبين زوجها فكان جواب مونيكا:

ـــ «إنني قَبِلْتُه كما هو من يد الرب يوم الزفاف، وعاهدت نفسي أن أحتمل كل صفاته منتظرة دائماً رحمة يسوع المسيح عليه وفي نفس الوقت لا أتضجر من خدمته في كل تواضع، معامِلة إياه كأخ لي وبهذا كله أسعى جاهدة أن أربحه للمسيح... ولا يفوتني، أيتها الأختان، أن أذكر لكما مشورة ذات فائدة عظيمة، وهو أنه لا يصح مقاومة الزوج ولا يصح معارضته وعلى الأخص وقت ثورة غضبه... أما بعد أن تهدأ ثورته ويصبح في حالة يمكن التفاهم معه فيها، فحينئذ أشرح له كل ما فعلتُ، فربما كان قد تسرَّع في الحكم أو قد أخطأ في الفهم وأصدر حكمه بدون تروٍّ».

همَّت مونيكا واقفة إذ سمعت همسات طفلها وهو يصحو من نومه، تلك الهمسات التي لا تسمعها سوى آذان الأم الساهرة على طفلها.

ـــ «عفواً، إن ولدي يبكي».

إستأذنت مونيكا بتلك الكلمات وإذا بصاحبتها لوسيلا تقاطعها متسائلة :
ـــ « هل هذا صوت ولدك يا مونيكا ؟ »

إذ ذاك زادت أنّات الطفل وتحولت بكاءاً شديداً فقالت الصديقتان :
ـــ «إن صرخته قوية وصوته ممتلىء . هل خُتم بعلامة صليب ربنا ومُلِّح بملحه [1] ؟! »
ـــ «نعم عندما كان حديث الولادة...»

بدأت الشمس في الإنحدار وتسلل الظلام إلى أن أدرك المكان ، ولكن من شرفة المنزل العالية كان الناظر يُبصر بهاء الشمس وهي تغيب عن الأبصار.

وسألت لوسيلا :
ـــ «ماذا ستدعين ابنك يا مونيكا ؟ »

حولت مونيكا عينيها ونظرت إلى النور الذي على الحائط ، ومن ثمّ حدّقت في السماء الخضراء التي كانت في لون النيل . و بينما هي على تلك الحال إذا برنين صوت ولدها يملأ أذنيها فتذكرت السؤال وأجابت :
ـــ « أُغُسطينوس !!... »

---

(١) أحد الممارسات القديمة التي كانت تتم في سر المعمودية ، أو للموعوظين قبل المعمودية ، ومن المحتمل أن يكون ذلك تنصيراً لعادة رومانية قديمة حيث كان يوضع بعض حبات الملح على شفتي الطفل في اليوم الثامن من ولادته لطرد الشياطين عنه .

— ٣ —
الأرمــــلة

■ «أمي ــ عبدتُك الأمينة يا إلهي ــ تبكي إليك من أجلي أكثر مما تبكي الأمهات أمام جثث أولادهن المائتة».

● ● ●

ــ «كلا... كلا يا ولدي!... أغُسطينوس... ولدي لن أدَعْكَ تذهب!»

ــ «أُمي ــ إنك تكادين تفقدين لُبَّكِ... لِمَ كل هذا الإضطراب بعد أن أفهمتُك أنني لن أتمكن من الإبحار ما لم تكن الرياح هادئة؟ إن صديقي يعتمد على حالة الرياح وينتظر تحسُّنها، وأنا بدوري أنتظر أوامر صديقي للرحيل.

أُنظري يا أُمي ــ يوجد هنا بالقرب من الميناء معبدٌ لذلك القبرصي المبارك ــ فهيا نذهب إليه لكي نمضي الليلة هناك لأن الوقت أصبح متأخراً. وفي الغد أراكِ مرة ثانية كي نستأنف تلك المناقشة ونتشاور في الأمر إذا أردتِ».

إن كل ذلك الحديث بالطبع لم يقنع مونيكا بشيء، ومن ثمَّ أدار الإثنان ظهريهما للميناء. وكان الرجال على البرِّ يهرولون مسرعين وهم يحملون المشاعل الحمراء في أيديهم، بينما كانت أنوار السفن تعكس أضواءها على سطح المياه، فكان يخيَّل للناظر إليها أنها أشباحٌ نورانية تتراقص على وجه الماء.

كـان الـظـلام قـد خيّم على الشوارع بينما سيطر السكون على المكان، وإذا بتلك الأم تتشبث مرة أخرى بذراع ولدها متوسلة متضرعة إليه:

ــ «لماذا تـصمم يا ولدي على ترك قرطاجنة (Carthage) بعد أن نِلْتَ فيها مجداً وشـهـرة في عـمـلـك؟... هل يدور في خَلَدك أنك ستحصل في روما على مجد أو كرامة أكثر؟!...»

ــ «كـلا يـا والدتي العزيزة! ولكن كما أخبرتُك من قبل أنني أُنشد الإستقرار لا الـطـمـوح. فـقـد علمت أن الشباب في روما يتلقنون العلم في أكاديميات عظمى حيث يخضع العلم لنظم وقوانين صارمة حتى أننا مثلاً لا نرى أحداً يقتحم مدرسة لا ينـتـمـي إليها ولا يُـسـمـح لأحـد إطلاقاً بدخول فصل بدون إستئذان، الأمر الذي يختلف كثيراً عنه في قرطاجنة، حيث الفوضى وعدم الإستقرار».

ــ «ليتك تبحث عن السعادة أفضل يا ولدي!»

ــ «وما هي السعادة يا أمي؟!...»

ــ «إذا رغب الإنسان الصلاح وجدّ في أثَره يصير سعيداً يا ابني».

ثم سـاد الـسـكـون وأخـيـراً وصـلـت الأم و بـرفقتها ولدها في صمت إلى مدخل المعبد، وهناك وقف الإثنان وسألته مونيكا:

ــ «إنك لن تبحر الليلة يا ولدي؟!...»

ــ «ألم أخبركِ بارتباطي بوعد لا أستطيع أن أتراجع فيه؟»

قال أغسطينوس تلك الكلمات ولم يتمالك نفسه فانفلت من يدي أمه وفي لحظة اختفى عـن عـيـنيها وابـتلعه الظلام، أما مونيكا المسكينة فقد ظلت يداها الباردتان ممسكتين بجدار المعبد إلى أن غاب عن مسامعها وَقْعُ أقدام ولدها الحبيب.

وتـلـمـست طر يـقها وهي متشبثة بالجدار إلى أن وصلت إلى صحن الكنيسة،

فسجدت، ثم تقدمت نحو الهيكل وهناك ركعت، ودفنت وجهها بين يديها وأمام المذبح سكبت نفسها في بكاءٍ مُرٍّ وصلاة طويلة حارة من أجل ابنها.

ـــ «لا تسمح له بالإبحار يا إلهي الصالح، يا مدبِّر الكون اسمع تضرُّع أرملة».

وظلت تبكي ما شاء لها البكاء، ثم أخذت مونيكا تفكر في مصير ابنها إذا ما ذهب لروما... إنه هنا واقع في شَرَكِ الخطية فكيف الحال به في روما؟ كيف لا تجرفه بالوعات روما من إلحاد وفسادٍ وعبادة أوثان؟!...

إنه أُغُسطينوس ابن الصلوات الكثيرة... إنه أُغُسطينوس الذي سالت من أجله الدموع أياماً وشهوراً وسنيناً. كيف لا تصلي الآن بأكثر حرارة وهو راحل عنها؟ وكيف لا تضطرب وهو سيغيب عن عينيها؟ وكيف لا تجاهد وتعاني الآلام من أجل نفسه وحياته كلها في خطر؟... ولكن مونيكا لا تنسى تعزية الله التي أرسلها لها عندما كانت في ضيق شديد زمناً ليس ببعيد. عندما كانت في حيرة واضطراب من أمر أغسطينوس عندما ساورها الفكر واستبدَّ بها الشك، هل يصح لها أن تسمح لولدها بالإقامة في منزلها و بتناول الطعام معها على مائدتها وهو قد خلع عنه ثوب العفة والإيمان معا؟؟. لقد ساورها ذلك الشك كثيراً وثقل على كاهلها الحمل حتى كاد يقتلها...

وإذا بالرب الكريم يهبها تعزية عن طريق حلم. وأخذت مونيكا تستعيد في ذاكرتها ذلك الحلم بينما هي جاثية أمام المذبح تبكي.

تذكرت في تلك الرؤيا كيف كانت واقفة على منصة خشبية وإذا بصبي مشرق الوجه مرح يأتي و يبتسم، بينما كان الحزن يملأ كيانها. جاء الصبي وقتئذ وسألها عن سبب حزنها ودموعها الدائمة التي لا تجف فكان جوابها: «إنني أبكي من أجل ضياع نفس ابني» فطلب منها الصبي أن تهدِّىء من روعها وقال لها:

ــ «أنظري وتأملي، أيتها الأم، إنَّ المكان الذي تقفين فيه فهناك يقف ولدك أيضاً».

وبالفعل تلفتت مونيكا حولها وإذا بها واقفة على منصة عالية وأغسطينوس واقف إلى جانبها.

ثم تذكرت كيف قصَّت وقتها الحلم على أغسطينوس، وكيف حاول هو أن يعكس معانيه وتفسيره بطريقة ترضيه إذ قال لها بكل جَدٍّ:
ــ «لا تيأسي يا أمي! فربما تصيرين حُرَّةً يوماً ما مثلي!»

ــ «كلا... كلا!...»، أجابت الأم في ثبات،
ــ «إنه لم يقل لي حيثما يكون ولدك تكونين بل حيثما تقفين فهناك يقف ولدك أيضاً».

إن مونيكا لم تعلم في ذلك الوقت مدى تأثير هذه الكلمات الأخيرة عليه إذ أن تفسيرها للحلم كان بأسلوب حكيم موجز رصين ترك أعظم الأثر في نفسه أكثر من مضمون الحلم ذاته، فهي بسبب إيمانها لم ترتبك عندما فسّر أغسطينوس الحلم بهذه الطريقة، لأن الحق كان جلياً أمام عينيها، لذلك خرجت كلماتها مفعمة بالإيمان واليقين، الشيء الذي كان يعوز أغسطينوس في ذلك الوقت.

وظلت مونيكا جاثية على ركبتيها في ظلام المعبد الدامس تستعيد تعزيات الله لها. إنها لا تنسى أيضاً ذلك اليوم الذي سعت فيه إلى الأسقف تتوسل إليه أن يتناقش مع ولدها ويحاول إقناعه وردّه عن ضلاله، وكيف اعتذر الأسقف مُذكِّراً إياها ببراعة أغسطينوس في المراوغة وبلاغته في الجدل. إن أُغُسطينوس كان يُسَرُّ فعلاً بالمناقشات التي كان يحيربها المسيحيين البسطاء. لقد كانوا فعلاً يحاولون



آه يا ربي... يا إلهي. يا مَنْ بيدك قلوب البشر لا تسمح له بالإبحار

جـهـدهم الدفاع عن إيمانهم، ولكن أُغُسطينوس كان ينتصر دائماً بدهاء إنتصاراً بلا عـدل. إن ذلـك الـكـاهن كان حكيماً إذ كان يعلم يقيناً عدم جدوى الإرشاد مع أغسطينوس ما دامت نفسه غير مستعدة.

ولكنها تذكرت كلماته التي قالها وقتئذ في قالب النصيحة:
ـــ «صلّي لله من أجلـه، والله قـادر أن يُظهِر له عن طريق الإطّلاع والقراءة خطيته ومدى جُرْمِه».

ولـكـن خـوفـهـا جعلها تلحُّ وتكرر طلبها للكاهن بدموع، فرد عليها بكلمات لن تنساها ما عاشت...:

ـــ «إذهبي في طريقـك، والـرب يـبـاركـك، فلا يمكن أن يهلك ابنُ هذه الدموع...»

ولـكن ما هو مصيره إذا ما ذهب لروما؟!... إنه عندما كان يعيش في ثاجست (Thagaste) وقرطاجنة (Carthage) بالقرب منها كان هناك الأمل أن يحين الـوقـت الـذي تنفتح عيناه فيه و يبصر خطاياه... ولكن آه لو ذهب لروما... روما... تـلـك المدينـة الماجنة التي تعيش نهارها في التسلّي بقتل الضحايا، وتقضي ليلها في الفساد والمجون...

ـــ «آه يـاربي. يـا إلهـي. يـا مَنْ بيدك قلوب البشر وأفكار الناس لا تسمح له بالإبحار... لا تسمح له يا إلهي!
أُغُـسـطـيـنـوس... أعـزُّ وأثمن أولادي، إستجب يا رب وإلاّ فاسْتَجِبْ لأجل آلامي ودموعي...»

هـكـذا كـانـت مـونـيـكـا تشعر بأُلفة في وجود الله كما يشعر القديس في حضرة

القدير. وعادت ذاكرتها مرة أخرى إلى طفولة ولدها... تبحث وتفتش... هل كانت مخطئة في معاملاتها معه؟ هل حرمته من ملكوت السموات لعدم حكمتها؟!...

هل كانت مخطئة عندما منعته من العماد لما كان صغيراً ومريضاً جداً وتضرع إليها وقتئذاك طالباً العماد، وكانت هي فعلاً على أتم استعداد لتنفيذ رغبته لولا ما حدث وجعلها تغير رأيها؛ يوم شُفي أغسطينوس فجأة من مرضه فتراجعت هي عن عماده لئلا يتلوث بالخطية بعد الغَسْل المقدس فيصير الخطر أعظم والخطية أكبر... هل كانت مخطئة؟!...

ــ «أنت وحدك تعلم يا إلهي أني، بنيَّةٍ مقدسة، كنت أحفظه لاسمك وأُربيه ليكون خادماً لك!»...

ولكن عقدة الذنب وتأنيب الضمير لم يكفَّا عنها، إذ تذكرت كيف أبْقَتْه في المنزل لمدة سنة كاملة قضاها في بطالة وكسل وكان إذ ذاك طائشاً غير متزن ابن خمس عشرة سنة.

في ذلك الوقت كان أغسطينوس قد أتم دراسته في مدرسة مادورا (Madaura) وخرج منها متفوقاً حتى على معلميه لأنه كان ولداً موهوباً وأذكى من كل الذين في سِنِّه، فكان على والده أن يرسله إلى قرطاجنة ليقضي عامين في الدراسة، ولكن من أين لهم النفقات؟... حقاً إن والده باترشيوس كان رجلاً حُرًّا من بلدة ثاجست (Thagaste)، ولكنه كان فقيراً، فكان لابد من الإقتصاد في المعيشة حتى يوفر له نفقات السفر والدراسة.

و يا لها من سنة تلك التي قضاها أُغُسطينوس في المنزل والبطالة!... وتذكرت كيف ذهب مع بعض أصدقائه لسرقة ثمار الكمثرى من حديقة جيرانهم، مع أن

حديقة والد أغسطينوس كانت وقتئذٍ مليئة بتلك الثمار... ومعظم الثمار التي سُرقت ألقوها للخنازير، فلم تكن في الحقيقة الكمثرى هي المقصودة ولكن عبث الشباب وغريزة الإعتداء.

لقد كان ذلك العام الذي قضاه في المنزل في بطالة وكسل غلطة لا تغتفر. كم تألمت مونيكا من جراء كل ذلك.

ـــ «آه يا رب أنت تعلم! أنت تعلم يا إلهي أن كل خطيئة اقترفها أغسطينوس كم سكبتُ من الدموع عنها!...

وأغسطينوس يا إلهي تثقَّل بميراث أبيه من شهوة وعدم عفة. لقد حذرتُه، يا إلهي، من الوقوع في الخطية وأفهمتُه جيداً خطيئة الإقتراب من امرأة رجل آخر».

ولكن أغسطينوس تثقلت أذنه عن سماع النصائح وعميت عيناه عن رؤية المثل المقدس. فكانت كلمات أمه في عينيه ما هي إلا نصيحة امرأة... فهل كان من واجبها كأُمٍّ أن تبحث له في ذلك الوقت عن زوجة حتى تحول دون انغماسه في الخطية؟! ولكنها كانت تطمع له في مزيد من العلم، وكان الطموح يملأ قلبها حتى أنها خشيت أن تزوّجه لئلا يعوق ذلك تقدمه العلمي وكان أمل تلك الأم أن يكون العلم سُلّماً يرتقي به إلى معرفة الله... فهل كانت مخطئة؟! هل تحققت مخاوفها؟

قد برع أغسطينوس في العلوم في قرطاجنة وفاق الجميع واشتعل قلبه بحب الحكمة. لقد كان ينشد الحكمة.

ولكن أغسطينوس كان متشامخاً وأعلى من أن ينظر إلى الكتب المقدسة... لم ينحنِ ليخضع لها بل انقاد وراء الحكمة الأرضية.

وفي أثناء وجوده في قرطاجنة أغْوَتْه امرأة تكبره سناً وكان ما زال بعد ولداً.

ـــ «فهل كنتُ مخطئة؟ وهل كان ينبغي أن أبحث له عن زوجة وقتذاك؟!... آه يا إلهي أنت تعلم... أنت تعلم، أني كنت أطلب له الأفضل دائماً...»

ركعت مونيكا مرة أخرى وسكبت نفسها في صلاة حارة طويلة من أجل ولدها... من أجل أغسطينوس!! والله الذي سمع قديماً لصلواتها التي قدمتها من أجل زوجها باترشيوس الذي كان وثنياً وملحداً واستجاب لدعائها فلم يمت باترشيوس إلا وكان قد صار مسيحياً، في الوقت الذي كان أُغسطينوس في السابعة عشر من عمره، إنه يقيناً سيستجيب لتلك الطِلْبة أيضاً... لابد سيسمع لصلواتها من اجل ابنها... ابن الدموع...

ـــ «أواه يا إلهي!...!! أنت الإله القدير أنت واهب الحياة فلا تسمح له بالإبحار!»

وسكبت الأم الباكية نفسها أمام ربها في تضرعات صامتة، ومكثت على هذا الحال دون أن تدري للوقت حساباً إلى أن ظهر خيط رفيع من نور الفجر، ولكن الشباك كان صغيراً ومرتفعاً بحيث يحجب الضوء عنها وظلت هكذا في ظلام دامس.

نهضت مونيكا من مكانها مع بزوغ الفجر وسارت تتلمس طريقها في طرقات المعبد إلى أن وصلت إلى الشارع المقفر، فتوجهت نحو الميناء حتى وصلت إليه والأنوار ما زالت مضيئة، فلاقتها رياح الصباح الباردة لافحة، تلف كيانها الضعيف لتزيد من محنتها...

دخلت مونيكا الميناء تنشد ولدها مع تسرُّب شعاع الفجر الرمادي في الأُفق... وكان بريق الأمل لا يزال يراودها... بحثت عنه... ولكن بغير جدوى حتى بدأ

الرعب يدبُّ في قلبها . سألت البحارة عنه... سألت كل واحد في طر يقها... وكانت الـر يـاح العاتية تهب في موجات عنيفة قاسية فأطاحت بشعرها وثوبها ، وجعلتها تتعثر كـأنهـا امـرأة عـجـوز... كـل ذلك لم يكن يشغل بالها بقدر ما كانت تخشى أن يكون أغسطينوس قد رحل فجأة .

كـلا... لم يـذهـب... لابد أنه ينتظر... لقد وعد أنه سينتظر إلى أن تهدأ الر ياح... وظـلـت مـونيكا تتلفت يميناً و يساراً تستفسر عن رحيل ولدها عند كل مَن يصادفها في لهـفـة وفـزع . وكثيرون أخبروها أنهم شاهدوه وهو يرحل في المساء ولكنها لم تكن تـر يد قـط أن تـصـدق ، أيرحل ؟ ! هكذا بدون أن يترك لها كلمة ؟ ! لابد أن هناك التباساً ! ! ! ...

ظلـت تـردد هـذه الكلمات في نفسها وهي حائرة ، لا تر يد أن تواجه الحقيقة ، ولـكـن الـحـقـيـقـة بـدت واضـحة وتسر بت إلى قلبها الممزَّق إذ لم يمكنها أن تستمر في خداع نفسها ، فسألت عن الساعة التي أبحر فيها ثم أسرعت خارج الميناء... وصعدت بـرجلين مـرتـعـشتين ذلك التل الموصل للقلعة المهدمة... إن القلعة تبعد ما يقرب من نـصف ميل عن الميناء ، والطر يق منحدر ، ومونيكا كان قد أرهقها السهر والمراقبة ، فعندما وصلت إلى القمة كان النهار قد انبلج .

شـخـصـت مـونـيـكـا نـاحية البحر وسرحت ببصرها بعيداً نحو الخليج... كانت الر ياح عكسية ومضادة ، إذن لا يمكن أن تكون السفينة قد ذهبت بعيداً... وأخذت تجـهـد عـيـنيها هنا وهناك عساها تلمح السفينة المنشودة... وأخيراً وعلى مسافة بعيدة وقـع نظرها على سفينة بدت صغيرة لعينيها الضعيفتين . راقبتها مونيكا وخفق قلبها إذ أحست أن لواءها معقود على فلذة كبدها .

أخـذت الـشـمـس تـتـصاعد رو يداً رو يداً على سطح البحر ، فأشرقت بضوئها

الساطع وأنارت بيوت البلدة بنورها الوهّاج بينما ظلت مونيكا تراقب وتراقب ساكنة في وقفتها لا تريد أن تتحرك، ولا تريد أن تحوّل عينيها عن السفينة التي تحمل ولدها، ولكن السفينة أخذت تختفي رويداً رويداً إلى أن أصبحت دقيقة للغاية ثم اختفت تماماً... ولكن مونيكا ظلت شاخصة بنظرها إليها كأنها لا تريد أن تواجه الحقيقة...

وأخيراً حولت بصرها عن البحر والحزن يملأ قلبها بعد أن فقدت آخر بارقة أمل، وفي ضعف ودوار شديد التصقت مونيكا بعامود مهدم إستندت إليه وظلت تفكر...

يجب أن ترجع الآن إلى مكانها الموحش، ترجع لدموعها ورجائها الذي عقدت عليه النية في قلبها أنها لن تتوقف عن الصلاة حتى يعود أغسطينوس، إنها لم تطلب ذهباً ولا فضة ولكنها صلّت من أجل خلاص نفس ولدها، وستصلّي إلى آخر نسمة من حياتها.

نعم يجب أن ترجع مرة أخرى إلى ترمّلها... ووحدتها في ثاجست (Thagaste) بعد أن صارت وحيدة فعلاً. ولكن شعوراً قوياً كان يملأ كيانها أن النور حتماً سيشرق، لأن الشمس فقط خلف الغمام... وفي عزمها وإصرارها لم تحاول أن تلقي نظرة أخيرة إلى البحر بل سارت ثابتة مرفوعة الرأس في طريقها إلى البلدة...

إنها ليست وحدها!

— ٤ —

الأُمُ

■ «خادمتُك — عبدتُك —
التي حَمَلتْني في الجسد لأُولد للنور
الزمني، وحَمَلتْني في القلب لأُولد
للنور الأبدي.
أُمي التي أنا أُؤمن أنَّ كل ما
يفيض فيَّ من حياة يرجع إليها.
إلى الدموع الأمينة، إلى الدموع
الدائمة، إلى دموع أمي، وُهبتُ حتى
لا أهلك».

000

خرجت مونيكا من مسكنها في ميلانو متوجهة إلى الكاتدرائية في ميعاد صلاة عيد الفصح حيث كان سيعمَّد ولدها، يا للفرحة إنها تتذكر ذلك اليوم الذي حضرت فيه إلى ميلانو منذ عامين كما لو كان بالأمس، إنها كانت قد فارقت ولدها لبضعة أشهر فقط، ولكن تلك الشهور كانت شهور نموٍّ سريع لها في مدرسة الإيمان. أما أُغسطينوس، فكانت هذه الشهور عينها بالنسبة له شهوراً خالية من الأوهام التي كان يحلم بها ولو أنها كانت مليئة بالمرض له في روما.

في نهايتها حضر أغسطينوس إلى ميلانو حيث سلَّم نفسه لرعاية أسقف قديس يُدعى أمبروسيوس. وهكذا عند مجيء الأُم إلى ميلانو انكشف لها حلم حياتها... إنها لم تجد أغسطينوس الفيلسوف ولكنها وجدت أغسطينوس التلميذ الذي يطلب

و يتعلم أصول الإيمان مع أنه لم يكن قد صار بعد مسيحياً بالعماد.

إن مونيكا الآن تجني ثمرة درس الإيمان العظيم الذي تعلّمته على يدي المعلم الأعظم. تقبلت مونيكا الخبر المفرح وقلبها يهتز بالإبتهاج فانطلق لسانها يسبّح و يبارك الإله:

ـ «إني أؤمن بيسوع واثقة به إلى النهاية، أنا كنت دائماً متيقنة بالرب أنه سيجعلني أراك المؤمن الكامل قبل أن أرحل عن هذا العالم!»

كان ذلك اليوم هو اليوم المنشود المنتظر. إن قلبها يَثِبُ من الفرح وهي تدخل الغرفة إذ ترى أُغُسطينوس وأليبيوس يتدارسان الإيمان، يا له من فرح مشترك بينهما!... وكان ولدها قد أخبرها بتفاصيل كل ما حدث. وقد ركعا معاً وظلاّ يصليان بقلب واحد، مشتركَيْن باشتياق في تسبيحات وتشكُّرات من أجل ذلك الإحسان العجيب.

وأخذ أغسطينوس يسرد لها كيف بدأت القصة عندما جاء لزيارتها بونتيتيانوس الأفريقي من بلاط الإمبراطور، وأبصر كتاباً على منضدة ففتحه وقرأ فيه وكان للقديس بولس الرسول... و بعدما قرأ فصلاً مناسباً، نظر ذلك المسيحي الأفريقي بابتسامة إلى أغسطينوس وكانت نظرته تنمُّ عن بساطة قلب وفرح وإيمان... وتناقش قليلاً مع أغسطينوس ثم انصرف ولكن نظرته وفرحه وإيمانه كانت قد نفذت إلى قلب أغسطينوس مع كلمات القديس بولس الرسول، حتى إن أغسطينوس لم يتمالك نفسه ولم يستطع أن يخفي شعوره عن صديقه أليبيوس:

ـ «لماذا أصابت كلمات بولس موضعاً مؤلماً فينا؟! ما هذا الذي يُبكّتنا؟... أنا متأثر جداً بما سمعت... إن هذا الجاهل الأفريقي البسيط نهض واغتصب ملكوت السموات ونحن قُعُود بالحسرة بعلْمنا وحكمتنا الأرضية. لقد فقدنا

كل حرارة وكل شوق روحي، نحن نتمرغ فقط في شهوات الجسد... هل نخجل يا ألبيوس من أن نتبع الآخرين لأن الآخرين سبقونا... وماذا يضيرنا حتى لو كنا أتباعاً؟!...»

ترك أغسطينوس وقتئذ صديقه الذي كان في حالة تعجب وصمت وهرب إلى الحديقة. فتبعه على الفور ألبيوس... إذ لم يشأ أن يتركه وهو في هذا الإضطراب العظيم.

ومكثا هناك على مقعد بعيد عن المنزل إلى أن عبَّر أغسطينوس عن اضطرابه وحيرته في دموع غزيرة وألح على ألبيوس والبكاء يخنق كلماته أن يتركه وحيداً... ثم ارتمى تحت شجرة تين بعيداً عن العيون وهناك ترك العنان لدموع مُرَّة ولصلوات حزينة...

وبينما كان أغسطينوس يصلي بقلب منسحق ونفس منعصرة تتمخض بأعظم عملية إيمان بعد إيمان «شاول»، إذ به يسمع صوت طفل وكأنه من بيت مجاور يرتل ويردد مرة بعد مرة كلمات لا يمكن أن ينساها أغسطينوس مدى الدهر:
ـــ «خذ الكتاب واقرأ... خذ الكتاب واقرأ...» ظن أغسطينوس في البدء أنها أنشودة أو لعبة عند الأطفال، ولكنه تحقق أنه الصوت الإلهي وبدء الدعوة. فجفف دموعه ورجع إلى حيث كان ألبيوس، وتناول الكتاب منه وفتحه وقرأ للرسول بولس في صمت نفس الكلمات التي كان قد قرأها منذ قليل:
«... لا بالبَطَر والسُّكر، لا بالمضاجع والعَهَر لا بالخصام والحسد؛ بل البسوا الرب يسوع المسيح، ولا تصنعوا تدبيراً للجسد لأجل الشهوات.» (رو١٣: ١٣و١٤)

وبينما هو يقرأ، إذ بنور المعرفة قد أشرق في قلبه لمجد الله... وفي الحال أخبر



... وألحّ أغسطينوس على ألبيوس والبكاء
يخنق كلماته أن يتركه وحيداً...

أليبوس أنه قَبِلَ الإيمان، أما أليبوس فطلب أن يرى الآية واستمر في القراءة إلى أن وصل لتلك الكلمات:

«ومَنْ هو ضعيف في الإيمان فاقبلوه» (رو١٤ : ١)، فاعتبر أن تلك الكلمات الأخيرة موجهة إليه أيضاً واعتبر أنه هو المقصود بها. وبدون أدنى تردد أو تأجيل إنضم إلى إيمان أغسطينوس.

وهكذا وحَّد الإيمان هذين القلبين اللذين قلّما افترقا... إذ حيثما ذهب أغسطينوس كان أليبوس يتبعه...

لقد قفز قلب مونيكا من الفرح عندما سمعت ترانيم النصر من فم ولدها.

إن يومين من الصيام المتواصل قد أضعفا جسد مونيكا إذ وضعت على نفسها أن تشارك ولدها في الصوم الذي يسبق العماد.

وها هي الآن تقترب من الكاتدرائية، ولكن خطواتها أصبحت بطيئة جداً بسبب أمراضها وضعفها، ولكن قلبها كان يطفر من الفرح والشكر. وأخيراً وصلت إلى الباب، ومنه دخلت إلى القاعة واستراحت هناك قليلاً ثم شربت من النبع الذي كان يتفجر من صخرة نادرة في لون زرقة السماء الصافية.

دخلت مونيكا الكاتدرائية فوجدتها تقريباً خالية فاستترت وراء أحد الأعمدة وأمضت الوقت في تأملات وصلوات.

وبدأ القادمون يتوافدون إلى أن امتلأت القاعة. وكانت مونيكا بين آن وآخر تسمع اسم ابنها يُردَّد على الأفواه:

ــ «... أغسطينوس!... هل علمت!؟...»

ــ «نعم... إكليل نصرة بالحقيقة للمؤمن».

ــ «لقد تكلم أمام الإمبراطور نفسه. إن الناس يدعونه أعظم معلم في جيله...»

ــ «إنه يُعتبر خسارة للكلية».

ــ «ولكنه كسبٌ عظيمٌ للكنيسة».

ساد صمت عميق ثم دخل المتقدمون للعماد، وإذ ذاك قفز قلب الأم لإستقبال ولدها ومعانقته. وفي سكون معبّر أكثر من صيحات العالم بدأت الخدمة.

دخل الواحد تلو الآخر... أليبيوس باشتياق وحرارة وقلب نقي، أديوداتس Adeodatus ابن أغسطينوس غير الشرعي الذي أنجبه في قرطاجنة، دخل أديوداتس كنيسة المسيح مع والده في حياء لحداثة سنه. وأخيراً دخل أغسطينوس... و وقف بقامته المشوقة يطوف بنظره بين الجموع إلى أن وقعت عيناه على أُمه، فاستراحت نفسه كأنها يمامة وجدت عشها...

وابتدأ طقس العماد التمهيدي، فأخذ يتلو قانون الإيمان بنبرات واضحة، غير أن صوته كان ضعيفاً من أثر المرض الذي انتابه أخيراً.

ــ «أؤمن بإله واحد الله الآب ضابط الكل خالق السماء والأرض. و بيسوع المسيح ابن الله الحي...»

كان يسرد قانون الإيمان وكأنه ينطقه بكل كلمة لأُمه... لقد حان الوقت لكي تجني الثمرة التي جاهدت بألم من أجلها طو يلاً، إنها تشعر بميل لتردّد مع سمعان الشيخ قوله المأثور: «والآن أطلق عبدك بسلام يا رب لأن عينيَّ قد أبصرتا خلاصك».

وإذ خرج الموعوظون ليتقبّلوا العماد في المغطس وتركوا الكاتدرائية، سرى في

الجميع شعور بالفراغ. أما مونيكا فكانت بروحها مع ابنها عندما نزل الدرجات الثلاث الموصلة للنبع. كانت تشعر أنها ترافق ابنها وهو في الماء، وعند مسحه بالميرون، وكأنها ترى كل شيء ــ ترى علامة الصليب ــ وضع الأيدي ــ قبلة السلام وأخيراً رداء البر الأبيض.

وأخيراً رجع المعمّدون وهم لابسون الملابس البيضاء وعادت الكاتدرائية وكأنها امتلأت من جوقات ملائكة بلباسهم الأبيض الناصع. أما مونيكا فلم تشعر أنها افترقت عنهم البتة. والآن يتحقق لمونيكا أقدس وأجمل أمل في حياتها عندما تقدمت هي وولدها مع صفوف المتناولين للتناول من جسد ودم ربنا وإلهنا يسوع المسيح، هذا الذي اتحدا أخيراً فيه، وانتعشت روحها على أثر الترانيم التي رُنمت في ذلك الحين. وفي وسط فيضان الإبتهاج سمعت ترنيمة الظفر والسرور التي قدمها الأسقف أمبروسيوس في يوم عماد ولدها. وحملت أنغام تلك الترنيمة قلب مونيكا إلى عرش الله:

ــ «نسبحك ونباركك يا الله،
بالحقيقة نعترف أنك ربنا.
الأرض وملؤها تسجد لك،
أيها الآب الأزلي،
أنت الذي يقف أمامك الملائكة
والرئاسات والسلاطين والقوات
أنت الذي يسجد أمامك الشاروبيم،
والسارافيم يمجدونك على الدوام
صارخين بغير سكوت قائلين:
قدوس قدوس قدوس».

وأخيراً انتهت الخدمة... وخرج المؤمنون وخَلَت الكاتدرائية... ولكن مونيكا ظلّت واقفة تصلي وكانت آخر مَن تركت المكان. ولما وصلت إلى باب الكاتدرائية العظيم المنقوش شعرت أن مهمتها في الحياة قد انتهت، وأنها قد أكملت سعيها، وأخيراً وُضع لها إكليل جهادها يوم عماد ابنها...

كان على أغسطينوس أن يقضي الليلة في صلاة ساهرة مع كثير ين من أهل ميلانو في الكاتدرائية، وكانت مونيكا تتوق شوقاً لتراه وتعانقه وترتاح بجواره...

إن الطر يق إلى مسكنها طو يل وشاق فكيف تسير وحدها والجهد والإعياء بلغا بها مبلغاً... ولكن بينما هي في طر يقها خارجة من القاعة تفكر في وحدتها وضعفها إذ بيد تمسك ذراعيها، إنه أديوداتس الذي ابتدرها: «إني أصطحبك إلى المنزل يا جدّتي، ها ساعديَّ إستندي عليَّ، إني قوي جداً».

كان صوته هو بعينه صوت ولدها عندما كان في الرابعة عشر من عمره إنها تذكره تماماً كانت نبراته وشجاعته واعتداده كلها تنطق بأغسطينوس الشاب:

ــ «إنك شاب طيب يا أديوداتس»، قالت مونيكا هذا وهي تستند على ذراعه.

«إنك كأبيك في صباه...»

توجهت عيون كثيرة إلى الباب خلف الستائر الكثيفة حيث كانت تمر مونيكا وحفيدها. و وقفت بجانب الباب أرملة تُدعى فرساندس Vercandus التي كانت مونيكا تقطن في ڤيللتها في كاسياكم Cassiacum بعد أن ترك أغسطينوس عمله كمدرس و بعد أن تعافى من مرضه. إقتر بت الأرملة من مونيكا وحيّتها بحرارة واشتياق كثير وألحت عليها في النزول ببيتها بعد الكنيسة للراحة ولكسر لقمة المحبة.

وكـان كـثيـرون يـتـوافـدون على المكـان ، الـبـعض تعرفهم والبعض الآخر لا تـعـرفـهـم ، لأن أغـسـطـيـنـوس كـان أصدقاؤه كثير ين ، وعلى رأسهم كان النبيل سـمـيـلـيـكـانوس وهو رجل مُسنٌّ وعظيم وأبٌ في الرب لأمبروسيوس و بونتيتيانوس الأفـر يقي ، وهما اللذان حملا المشاعل ليضيئا الطر يق لرجليّ ولدها . وأوديوس أيضاً من ضـبـاط الـبـلاط وصـديـق لأغـسـطـينوس منذ أن كان في ثاجست ، ونبرديوس الـعـز يـز وكـانـت قد تعرفت عليه مونيكا في أفر يقيا . إنه لم يُسمح له بالإشتراك في الخدمة لأنه لم يكن بعد عضواً في الكنيسة ولو أنه كان متقدماً وطالباً للعضو ية .

وقد أحب أغسطينوس ذلك الصديق حباً عظيماً ومن أجل ابنها أحبته هي أيضاً بدورها .

ووصـل الجـمـيـع إلى الشرفة وإذا بقلبها يخفق فجأة على صوت وقع أقدام تعرفها جيداً وتميزها أيضاً...
إنه أغسطينوس نفسه بملابسه البيضاء و وجهه المضيء بنور مقدس .

وتـركـت على الـفـور ذراع أديـوداتـس واحـتـضـنته ، أما هو فأخذ يديها بين يديه وانحنى أمامها مقبّلاً يديها عدة مرات قائلاً :
ــ « أُمي... وأكثر من أُم ، أُمي التي وُلدتُ منها مرتين... »
ــ « ولدي ! ؟... ولدي » .

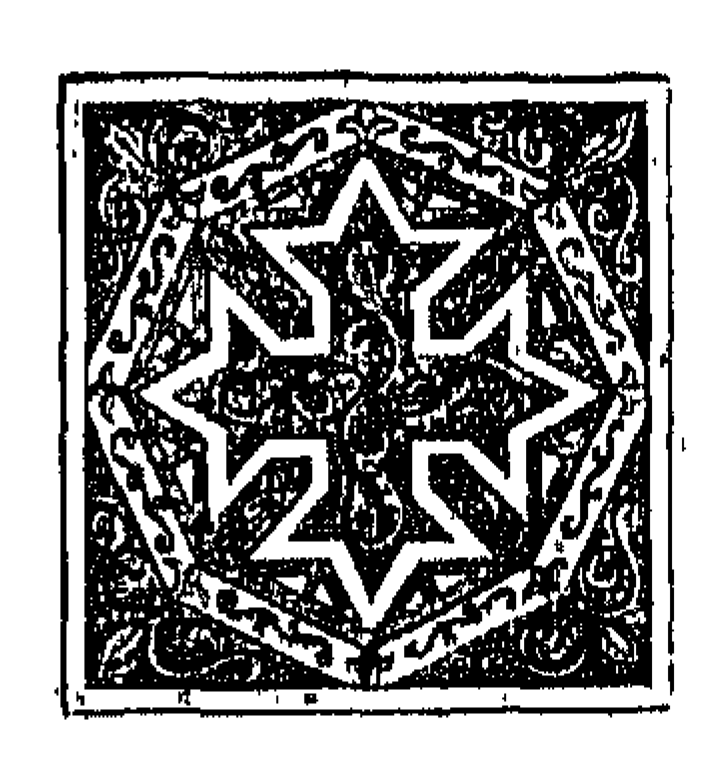
ثم حـدث في الـشـرفـة هـرج والـكـل هـبَّ واقـفـاً محـيِّـيـاً عندما ظهر الأسقف أمـبروسيوس الذي أحبته مونيكا كملاك الله الذي أتى بولدها من الظلمة إلى النور. فـأسـرعـت مونيكا وتقدمت نحوه مُقبّلة يديه ، فأعطاها البركة ولاطفها كثيراً ثم قال لها الأسقف القديس بصوت متهدج وخافت من طول الخدمة :
ــ « لـقـد جـاهـدتِ ونـلـتِ أيتها الأم الأمينة ، لستُ أنا وحدي الذي أُحييكِ ،

فالكنيسة كلها تحييكِ ، إني لو كنت ابنكِ لكنت الآن جاثياً عند قدميكِ » .

نظرت مونيكا إليه وسمعته ولكنها غابت عن وعيها من شدة التأثر والتعب . وبعد جهد وبصعوبة شديدة رأت أليبوس الذي كان قادماً نحوها ، وبالجهد أيضاً شعرت بيديَّ ولدها القويتين وهما تمسكان بها .

ماذا كان بها... إنها لم تشعر بكل ذلك ؟!... لقد بدأ الخِوَار يدبُّ في جسدها ، وبالرغم من ذلك كانت نفسها قوية بالله ولسانها لا يكفّ عن الشكر والحمد...

« إلهي إن عينيَّ قد أبصرتا خلاصك !... »



ـ ٥ ـ

عروس المسيح

■ «... لقد اعتنتْ بنا كما لو كانت أُماً لنا جميعاً، وأيضاً خدمتنا كما لو كانت ابنة لنا جميعاً».

■ ■ ■

في ظهيرة أحد الأيام الحارة في إيطاليا اتكأت مونيكا وبجانبها أغسطينوس على حافة النافذة يتطلعان إلى الحديقة التي كانت تسطع عليها الشمس الدافئة. بينما الورود الناصعة البياض والزهور الحمراء تملأ أرجاءها.

وكانت الفيللا تقع على قمة تل في ضاحية من ضواحي أوستيا Ostia، وكان الناظر من فوق ذلك التل يرى المنحدرات وقد كستها مزارع الكروم والزيتون، بينما تناثرت أشجار الصنوبر في كل مكان. وفي المنخفض البعيد كانت المراكب الضخمة ذات الأسطح المتعددة تغدو وتروح في نهر التيبر في روما وهي محملة بالرخام الأبيض النادر المأخوذ من جزيرة ياروس باليونان، والرخام الأرجواني من بلاد فريجيا بآسيا الصغرى والرخام الأسود من رأس ماتايان بأقصى جنوب اليونان والرخام الأصفر من نوميديا بلادهم العزيزة بشمال أفريقيا. وكذلك كانت محملة بالجرانيت من مصر وحجر اللازورد من بلاد فارس والألَبَشتر من اليونان وحجر اليَشْب أيضاً وكلها لتزيين بيوت نبلاء الرومان. وكانت زرقة السماء تمتد حتى تلتقي بالبحر في الأُفق البعيد حيث كانت تظهر كورسيكا الجزيرة المتاخمة كضباب

التي لم تقدر أن تكشفها إلاّ عينا أغسطينوس.

كانت مونيكا قد زارت الميناء، ميناء أوستيا Ostia، منذ زمن ليس ببعيد عندما جاءت لتتابع ولدها في البحر وفي البر. إنها تتذكر جيداً ذلك اليوم، لأن الرياح يومئذ كانت شديدة عاتية والبحر كان في أشد ثورانه، ولكنها لم تكن ترهب شيئاً لأن قلبها كان دائماً يلهج باسم الله فكانت سبب تعزية لكل الذين في المركب.

وها هي الآن تعود إلى نفس الميناء ومعها ضالتها المنشودة.

+ + +

يقول القديس أغسطينوس في اعترافاته التي كتبها بعد توبته ودخوله الإيمان:
«بدأ اليوم الذي كانت مونيكا مزمعة فيه على الرحيل عن هذا العالم يقترب، لم يكن أحد يعرفه سواك (يا ربي) ولكن العناية الإلهية التي تعمل حسب تدبيرك الخفي قد هيأت أن نجتمع هي وأنا معاً... متكئين على شرفة نافذة تطلُّ على الحديقة داخل المنزل الذي كنا نازلَيْن فيه هناك في أوستيا على التيبر بعيداً عن زحمة الناس نستجم بعد عناء رحلتنا الطويلة لمتابعة السفر...

بدأنا الحديث معاً وكان عذباً ,,ناسين ما هو وراء وممتدين إلى ما هو قدام،، (في٣: ١٣)... كنا نبحث مع أنفسنا بإحساس من الحق مَن تكون أنت (يا ربي) وما هي الحياة الأبدية التي يحياها القديسون التي لم ترَها عين ولم تسمع بها أُذن ولا خطرت على قلب بشر (١ كو٢: ٩).

ولكن كان قلبانا يلهثان كالفم العطشان، مشتاقَيْن إلى مجاري أنهار السماء النابعة من عندك ,,لأن عندك ينبوع الحياة،، (مز٣٦: ٩) حتى إذا أصابنا رشاش

منـه على قـدر طاقتنا نستطيع أن نتأمل في هذا الأمر العظيم... وعندها وصل حديثنا إلى أن أعـظـم مـسـرات الجسد الحسية حتى في أنق صورها المادية إذا ما قيست بنعم الحيـاة الأبـدية تبدو أحقر من أن نقارنها بها بل ومن أن تُذكر معها جملة. واستمرت نـفـوسنا تحلّق بعاطفة متأججة نحو هذا ,, الكائن وحده،، تمرق خطوة خطوة خلال الأشيـاء المـادية كـلـهـا، حتى الـسماء بـشـمسها ونجومها وضوئها الذي تسكبه على الأرض.

وتـابـعـنـا صـعـودنا أكثر فارتقينا فوق الفكر نفسه وفوق الحديث وفوق أعاجيب عـمـل يـديك حتى بلغنا إلى ذهننا نفسه وتجاوزناه حتى نتلامس مع الحدود اللانهائية التي لا تـرخـي عـنـانهـا مطلقاً؛ حيث تطعم مفدييك في مراعي الحق، وحيث الحياة هـنـاك هـي الحكمـة التي منهـا صـنـعْـت كـل الأشـيـاء تـلـك التي صارت وتلك التي ستـكـون، وهـي كـائـنـة بـذاتها هي كما هي الآن كما كانت وهكذا تكون إلى أبد الآبـديـن، أو بـالحـري لا يـوجـد فيهـا ,, كـان،، أو ,, سيـكـون،، إنما ,, يكون،، وحسب، لأنها أبدية، لأن ,, كان،، و ,, سيكون،، لا توافق الأبديات...

و بينا نحن نتبادل حديثنا لاهثَيْن سعياً وراء هذه الحقيقة وقلبانا مشدودان إليها بـكـل انـطـلاقـهما إسـتـطـعـنـا إلى لحظة أن نتلامس معها؛ ثم هبطنا من هناك آنين تـاركين على حـافـتهـا ,, أولى ثمار الروح،، (رو٨: ٢٣)... وحينئذ عُدْنا إلى حديثنا المتعثر وإلى أصوات أفواهنا حيث الكلمة ذات البداية وذات النهاية... وهل ما يشبه كلمتك يا الله، الكائن في ذاته، الذي لا يزيد أياماً ويجعل كل شيء جديداً؟

لـقـد قلنا في أنفسنا أنه إذا أُوتي لإنسان أن يُسكِت شغب الجسد و يُبطِلَ مناظر الأرض والمـاء والهـواء وكل ما بين القطبين، والنفس أيضاً تصمت في نفسها، ومن خـلال صـمـت الـفـكر تتجاوز ذاتها حيث لا خيال ولا تصور ولا استعلان... حيث



ولدي لقد تحققت آمالي في العالم ولم يعد لي
مسرة في شيء... إني أشتهي الإنطلاق...

يهدأ اللسان وتقف كل إشارة وكل ما يقع تحت التغيير، إذا بلغ أحد إلى هذا السكوت الكلي بالصمت حينئذ يسمعها كلها تقول بفم واحد ,, نحن لم نصنع أنفسنا هو هو صنعنا الدائم إلى الأبد،، (مز ١٠٠ : ٣)، فإذا صمتوا هم أيضاً بعد أن يكونوا قد أمالوا أُذننا إليه وكشفوا لنا أنه صانعهم، حينئذ سيتكلم هو بنفسه لا بواسطة مصنوعاته ولكن بنفسه حتى أننا نسمع ,, كلمته،، غير منطوقة بلسان لحمي ولا بصوت ملاك ولا برعود السحاب ولا بمثل ولغز، ولكن بنفسه الذي نحبه خلال هذه الأشياء جميعاً.

فإذا تسمعناه بدون واسطة ــ بقدر إجهادنا لذواتنا و بقدر انطلاق الفكر للتلامس مع الحكمة الأبدية الكائنة فوق قمة الوجود ــ مثابرين على إلغاء كل صور الطبيعة إلى أن نغتصب عنوة هذا الشيء الواحد ونتمثله ونحتويه وسط مسرات القلب الداخلية حيث الحياة الأبدية تصير مدركة كلحظة تنهد، ألا يكون صوته لنا حينئذ ,, أُدخُلْ إلى فرح سيدك؟،، (مت ٢٥ : ٢١) ومتى يكون ذلك؟ ألا يكون حينما ,, نتغير كلنا،، (١ كو ١٥ : ٥١)».

(هكذا كتب أغسطينوس فيما بعد في اعترافاته)

+ + +

و بينما هما يتحادثان عن أمجاد الحياة الأبدية التي تفوق كل أفكار وأفراح العالم الحاضر، أدارت مونيكا عينيها المغرورقتين بالدموع نحو ولدها قائلة:

ــ «ولدي! لقد تحققت آمالي في العالم ولم يعُدْ لي مسرة في شيء. إني أشتهي الإنطلاق. لقد كنت أُنشد شيئاً واحداً وقد نلتُه لأن الرب نظر إلى ذُلِّي ودموعي، وها أنا أفرح إذ أراك تُعرِضُ عن سعادة الدنيا وتكرِّس نفسك لله...»

□ □ □

لم يمضِ خمسة أيام على هذا الحديث حتى وقعت مونيكا فريسة حمى شديدة حيث تدهورت صحتها سريعاً وباءت محاولات أغسطينوس لإسعافها بالفشل بالرغم من تفانيه في خدمتها، وقد شعرت بذلك الحنان الفائق حتى لقبته بالإبن المطيع المتمم لواجبات البَنَوية. وهكذا عوّض أغسطينوس عن عقوق الصبا عشرة أضعاف، ولكنه كان يحمل بين جنباته حزناً لا ينقطع عن إساءات الماضي قائلاً في نفسه: «شتّان بين ما أُقدمه من إكرام وبين ما قدمتِه من عبودية لأجلي».

واستمرت الحمى تهدّ من كيان جسدها الضعيف، إلى أن انتابتها غيبوبة، فأسرع حولها أولادها وأصحابها والتفوا حولها عالمين أن نهايتها قد دَنَتْ.

جثا أُغُسطينوس بجانب السرير مرهفاً سمعه ليتقبّل من صوتها الخافت الضعيف وصيتها الأخيرة بينما وقف أديوداتس Adeodatus جزعاً حزيناً.

وبالقرب من السرير وقف أيضاً نافيجيوس الذي كان يُعتبر غريباً بالنسبة للموجودين في الغرفة مع أنه أخ لأغسطينوس بالجسد. ووقف عند النافذة إيوديوس ومعه ألپيوس الذي كان يدعوه أغسطينوس «توأم قلبي». ظل أغسطينوس جامداً بجانب سرير أمه بينما لم تفارقه عينا صديقه ألپيوس الذي رأى أوجاع صديقه إذ لم يعد قادراً على إخفائها.

وبعد قليل تكلم نافيجيوس قائلاً:
ـ «عجيب حقاً إنها لا تتمسك بالحياة... إنها تموت بإرادتها لأنها ترغب في الحياة الأفضل».

وإذ قطع نافيجيوس ذلك السكون الموحش المهيمن على المكان بتلك الكلمات، تشجع أديوداتس واقترب من السرير يطلب بركة جدّته... ثم استطرد نافيجيوس:

ــ «لقد منحها الرب قوة عجيبة حتى إنها أصبحت لا تهاب الموت. هل تعلم يا أغسطينوس أنه عندما كنتَ متغيباً في الأيام القليلة الماضية وكنا نتحدث معها، كان موضوع حديثها دائماً عن احتقار أباطيل هذه الحياة والراحة التي يجلبها الموت؟ ونحن إذ تعجبنا لحديثها، سألناها ألا تريدين يا أماه أن يكون انتقالك في ثاجست أفضل حيث مثوى الآباء والأجداد؟ فكان جوابها لنا هو: «لا يوجد شيء بعيد عن الله وإني متيقنة أنه في النهاية سيعرفني الرب و يقيمني».

نظر أغسطينوس نظرة واحدة إلى صديقه ثم حوّل عينيه مرة أخرى إلى ذلك الفراش ليستأنف السهر والمراقبة. و بعد برهة تنهدت مونيكا بضعف وفتحت عينيها ونظرت لولديها الملتصقين بالفراش وتمتمت بصوت خافت «أين أنا؟...» سألتهما ذلك السؤال، ثم استعادت ذاكرتها وثبّتت نظرها نحوهما وقالت:

ــ «أطلب إليكما أن لا تتحملان أي مشقة في نقل جسدي، إني أود أن أُدفن هنا حيث أموت».

ولكن أسرع نافيجيوس بمعارضتها:

ــ «كلا، يا أمي، إنه لمن السعادة أكثر ألا تموتين في بلد غريب ولكن في أرضك تموتين».

نظرت مونيكا إليه نظرة حزينة، لأنها رأت أنه لا يزال يهتم بالأشياء الأرضية. ثم حوّلت نظرها نحو أغسطينوس، الذي كان البكاء يخنق الكلمات على شفتيه، وإذ حاول جاهداً ألا يُظهر دموعه لزم الصمت.

ثم وجهت الأم كلامها إلى أغسطينوس صاحب القلب والعقل الذي يفهم كلامها جيداً:

ــ «أثْوِيا الجسد في أي مكان ولا يكون الأمر سبب خلاف بينكما، ولكن

فقط وصيتي أن تذكراني في هيكل الرب أينما تكونان...»

و بعد تلك الكلمات لزمت هي أيضاً الصمت إذ أنهك المرض قواها.

ووسط ذلك الحزن العميق تذكر أغسطينوس كيف كانت أمه دائماً مهتمة بالمكان الذي ستدفن فيه، وقد أعدت لنفسها مكاناً بجانب جسد زوجها في أفريقيا.

لقد أحبت زوجها كثيراً وقد كانت رغبتها أن يتحد جسداهما في الموت على نفس الأرض التي عاشا عليها في وئام الروح، ولكن حينما تسمو الروح يُنسى الجسد...

و بعد برهة وجيزة انطلقت تلك الروح... الروح المباركة، وتركت الجسد المُسجّى وديعة وشيكة الزوال. وحاول أغسطينوس أن يمنع دموعه ولكن غلبه البكاء... وأديوداتس لصغر سنه لم يتمكن من ضبط نفسه فانفجر في البكاء والعويل.

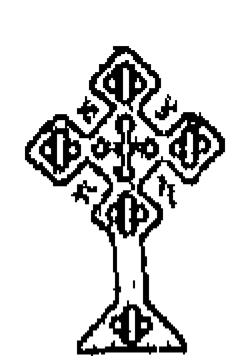
أخذ إيوديوس كتاب الترانيم و بدأ يرتل واشترك الجميع معه قائلين:
ـ «رحمةً وحكماً أُغني
لك يا رب أُرنم
متى تأتي إليّ».

و بينما هم يرنمون إنضم إليهم الإخوة والنساء المؤمنات إلى أن امتلأت الغرفة بالمرنمين من رجال وسيدات. وكان صوت المرنمين المنخفض الحزين مثل صوت البحر الهادر لأن المشتركين كانوا جمهوراً عظيماً من المرنمين:
ـ «أنت يا رب في البدء أسست الأرض والسموات هي عمل يديك، هي

تبيد ولكن أنت تبقى ، وكلها كثوب تبلى وكرداء تطويها فتتغير... ولكن أنت أنت وسُنُوك لن تفنى... »

* * *

ثم سكتت أصوات المرنمين وتقدم الذين كان عليهم أن يرفعوا الجسد.
أما روح مونيكا فكانت قد انطلقت إلى الله في مشهد آخر رائع ،
وحولها جمهور من الجند السمائي وأرواح أبرار
مكمَّلين لتنضم معهم إلى الحياة الأبدية...
إلى ما لم تره عين ، وما لم تسمع به أذن ،
وما لم يخطر على بال إنسان...
« أُدخلي إلى فرح سيدك »





تُطلب من :

دار مجلة مـرقس

القاهرة: ٥٠ «أ» شارع شبرا ـ شقة ٤ ـ ت ٧٧٠٦١٤

الإسكندرية: ٣٤٤ طريق الجيش ـ جليم ـ ت ٨٦٦٤٤٥

إعادة الطبعة الثانية (١٩٩٢)

الثمن ٧٥ قرشاً

(١٠٣)